

الإستشراق

والخلفية الفكرية للصراع الحضاري

■ ■ ■ إن

الإستشراق

- في دراسته للإسلام -

ليس علما بأي مقياس علمي ،

وإنما هو عبارة عن

أيدلوجية خاصة ،

يراد من خلالها ترويح تصورات معينة

بصرف النظر عما إذا كانت هذه التصورات قائمة على حقائق

أو مرتكزة على أوهام

واقتراعات ...

وقد يتمثل الجانب الإيجابي للإستشراق في صورة الهجوم علينا

وليس في صورة المدح ،

فهناك عدد من المستشرقين قد مدحوا حضارتنا في مؤلفاتهم واثنوا على علمائنا ، ومجدوا تراثنا ،

وأخرهم المستشرقة الألمانية المعاصرة « زيجيريد هونكة » ،

في كتابها « شمس الله تسطع على الغرب » ،

... ولكن جانب المدح والثناء

قد يكون له تأثير تخديري علينا : فيجعلنا نغض عيوننا مستسلمين لتلك الأحلام السعيدة

التي تذكرنا بالعز الذي كان ، ونركن إلى ذلك ،

ونعيش على صيت آبائنا وأجدادنا ،

ونظن أننا عظماء

لأن أجدادنا كانوا عظماء .. ■ ■ ■

● ● حول قضية الإستشراق ، كانت المحاضرة الثانية ، في إطار الموسم الثقافي الإسلامي الخامس ، الذي تقيمه ، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ، بدولة قطر .. القى المحاضرة الدكتور محمود حمدي زقزوق وكيل كلية الشريعة بجامعة قطر تحت عنوان « الإسلام والإستشراق » .. وهو عنوان قد يبدو تقليدياً من ناحية الشكل ، إلا أن المحاضرة تميزت بالتوظيف الجيد للمعلومات الغزيرة ، في نسق منهجي موضوعي مترابط ، من أجل تحديد المفهوم الصحيح للإستشراق كجزء من قضية الصراع الحضاري القائم بين العالم الإسلامي والعالم الغربي ، ساهم في صياغة التصورات الأوروبية عن الإسلام وفي تشكيل مواقف الغرب إزاء الإسلام على مدى قرون عديدة .. ● ●

خاصة دفعت إلى اشتغال الأوروبيين بتعاليم الإسلام وعاداته ، وفي هذه الفترة المبكرة للإستشراق ، كان هناك اتجاهان مختلفان فيما يتعلق بالاهداف والمواقف إزاء الإسلام : اتجاه لاهوتي متطرف في جدله العقيم ، ينظر إلى الإسلام من خلال ضباب كثيف من الخرافات والأساطير الشعبية .. واتجاه أقرب إلى الموضوعية والعلمية ، نسبياً ،

بالمقارنة مع الاتجاه الأول ، وينظر إلى الإسلام بوصفه مهد العلوم الطبيعية والطب والفلسفة .. غير أن الاتجاه الخرافي ظل حياً حتى

بدايات مبكرة .. وتوسيع حدود الكنيسة ..

في مستهل تناوله للقضية ، مهّد الدكتور زقزوق بعرض لتاريخ الإستشراق وتطوره .. فأرجع البدايات الأولى للإستشراق إلى مطلع القرن الحادي عشر الميلادي .. وأوضح أن الدافع لهذه البدايات المبكرة للإستشراق يرجع إلى الصراع الذي دار بين العالمين الإسلامي والتصراحي في الأندلس وصقلية . كما أن الحروب الصليبية ، بصفة



● محمود زقزوق :
الاستشراق جزء من قضية
الصراع الحضاري بين العالم
الإسلامي والعالم
الغربي

● لابد من توحيد الجهود لإقامة مؤسسة
إسلامية علمية عالمية ..



دينية تتمثل في محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك في قيمه ، ولأسباب
سياسية تتصل بخدمة الصهيونية ، فكرة أولاً ثم دولة ثانية .
وعلى كل ، [فقد ظل اليهود طوال تاريخهم يحثون كل فرصة
متاحة ليكيدوا للإسلام والمسلمين . وقد وجدوا في مجال
الاستشراق باباً ينفنون منه سمومهم ضد الإسلام والمسلمين
فدخلوه مستخفين في رداء العلم] .

للقائفة والاعتبار ...

ويرى الدكتور محمود زقزوق - كما يرى غيره - أن هناك مواقف
إيجابية للمستشرقين تستحق التسجيل لهم ، كما لهم مواقف سلبية
ينبغي أن تسجل عليهم .. وفي تناوله للمواقف الإيجابية أشار إلى أن
[بعضها يعد أمراً تخص المستشرقين وتتصل بأسلوب عملهم ومدى
ترابطهم ، والقصد من ذكرها مجرد الاعتبار ، وبعضها الآخر أمور
تتصل بمنتجاتهم العلمي الذي يعود بعضه بالفائدة على الدارسين
العرب] .

.. وعن الجوانب الإيجابية يقول إنها تتمثل في مواقفهم التي يمكن
تحديدها على النحو التالي :

■ يخدم المستشرقون أهدافهم التي وضعوها لأنفسهم بإخلاص
تام وتفان إلى أقصى حد ممكن .. وعندما أراد المستشرق الهولندي
« سنوك هورجرونيه » أن يكتب كتاباً عن مكة ، لم يثنه عن عزمه
لدراسة مكة على الطبيعة أنه نصراني لا يجوز له دخولها ، فانتحل
اسماً إسلامياً هو عبد الغفار وزار مكة عام ١٨٨٤م وأقام بها
مدة خمسة شهور ليكتب بعد ذلك كتابين : (الحج إلى مكة)
و (مكة وجغرافيتها في القرن التاسع عشر) .

■ هناك ترابط تام بين جماعات المستشرقين في مختلف البلدان
وتنسيق مستمر وتعاون وتكامل في مجالات الدراسات العربية
الإسلامية .. وبلغ عدد المؤتمرات الدولية التي عقدها في
الفترة من سنة ١٨٧٣م إلى سنة ١٩٦٨م ثلاثين مؤتمراً .. وبلغ
عدد العلماء المشاركين في مؤتمر أكسفورد ، مثلاً ، ٩٠٠ عالم
من ٢٥ دولة و ٨٥ جامعة و ٦٩ جمعية علمية .

■ قد يتوفر المستشرق على موضوع معين من الدراسات العربية
وإسلامية فيقضي العمر كله في البحث والاستقصاء لاستيفاء
شئى جوانبه ، ولهذا لديهم معرفة جيدة بكل ما ينشر عن
الدراسات العربية والإسلامية في بلدانهم .

القرن السابع عشر بل حياً حتى العصر الحاضر في كتابات بعض
المستشرقين ..

أما العامل المهم في تطور الاستشراق فيتمثل في [الاقتناع بضرورة
تعلم لغات المسلمين ، إذا أريد لمحاولات تنصير المسلمين أن تؤتي
ثمارها] ، وهو اتجاه ساندته البابوية الرومانية مساندة كبيرة إبّان
عصر النهضة الأوروبية .

فتم إنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في أكثر من جامعة أوروبية ،
لأجل مصلحة التبشير بالنصرانية في العالم الإسلامي ..

ولعل ما هو جدير بالذكر هنا - على سبيل المثال - أن قرار إنشاء
كرسي اللغة العربية في جامعة كامبردج عام ١٦٢٦م قد نص صراحة على
خدمة هدفين ، أحدهما تجاري والآخر تنصيري ، فقد جاء في خطاب
إلى مؤسس هذا الكرسي بتاريخ ٩ مايو (أيار) ١٦٢٦م من المراجع
الأكاديمية المسؤولة في الجامعة ما يلي : « ... ونحن ندرک أننا لا نهدف
من هذا العمل إلى الاقتراب من الأدب الجيد بتعريض جانب كبير من
المعرفة للنور بدلاً من احتباسه في نطاق هذه اللغة التي نسعى لتعلمها ،
ولكننا نهدف أيضاً إلى تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة .. وإلى تمجيد
الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة إلى الديانة النصرانية بين هؤلاء
الذين يعيشون الآن في الظلمات ... » .

اليهود والهوية الأوروبية ...

وفي محاولته لتحديد دور اليهود في إطار الحركة الاستشراقية ،
وإيجاد تفسير لإغفال المراجع الحديثة هذه النقطة ، يعتقد الدكتور
زقزوق أن السبب يرجع إلى : [أن المستشرقين اليهود استنطعوا أن
يكيفوا أنفسهم ليصبحوا عنصراً أساسياً في الحركة الاستشراقية
الأوروبية النصرانية .

فقد دخلوا الميدان بوصفهم الأوروبي لا بوصفهم اليهودي ... حتى
لا يعزلوا أنفسهم ، وبالتالي يقل تأثيرهم ... وبذلك كسبوا مرتين :
كسبوا أولاً فرض أنفسهم على الحركة الاستشراقية كلها ، وكسبوا
ثانياً تحقيق أهدافهم في النيل من الإسلام ، وهي أهداف تلتقي مع
أهداف غالبية المستشرقين النصرانيين] .

ويدعم الدكتور زقزوق تعليقه هذا ، بما أورده د . محمد البهي
- رحمه الله - في كتابه (الفكر الإسلامي الحديث) ، من ملاحظات
لبعض الباحثين تؤكد أن إقبال اليهود على الاستشراق ، يعود لأسباب

● الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بين العالم الإسلامي والعالم الغربي .. وليس قضية منفصلة عن باقي دوائر الصراع ..

● لا نستطيع أن نتجاهل حركة الاستشراق ونكتفي برفضها فلا بد لنا من المواجهة وطرح القضية ودراستها واستخلاص النتائج والحلول ..

فيقول : [نحن لا نطلب من كل مستشرق أن يغير معتقده ، ويعتقد ما نعتقد عندما يكتب عن الإسلام ، ولكن هناك أوليات بديهية يتطلبها المنهج العلمي السليم ، فعندما أرفض وجهة نظر معينة لابد أن أبين أولاً وجهة النظر هذه من خلال فهم أصحابها لها ، ثم في بعد ذلك أن أخالفها .. وعلى هذا الأساس نقول إن الكيان الإسلامي يقوم على أساس الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ ، الذي تلقى القرآن وحياً من عند الله ، ويجب على العالم النزيه والمؤرخ المحايد أن يقول ذلك لقراءه عندما يتعرض للحديث عن الإسلام ، ثم بعد ذلك يخالف المسلمين في معتقداتهم وتصوراتهم ، أما أن يعرض المستشرق الإسلام - باديء ذي بدء - من خلال تصورات سابقة مبنية على خيالات وأوهام ، فهذا ما لا يقره علم ولا خلق ..

وهكذا يمكن القول بأن الاستشراق - في دراسته للإسلام - ليس علماً بأي مقياس علمي ، وإنما هو عبارة عن أيديولوجية خاصة يراد من خلالها ترويض تصورات معينة عن الإسلام ، بصرف النظر عما إذا كانت هذه التصورات قائمة على حقائق أو مرتكزة على أوهام وافتراءات ..

... ثم يعرض الدكتور المحاضر لنماذج من سلبيات الاستشراق كما يلي :

■ لم يطور الاستشراق كثيراً في أساليبه ومناهجه .. وفي دراسته للإسلام لم يتخلص قط من الخلفية الدينية للجدل اللاهوتي العقيم الذي انبثق منه الاستشراق أساساً ، ولم يتغير شيء من هذا الوضع حتى اليوم ، باستثناء بعض الشواذ ..

■ يعدد المستشرقون إلى تطبيق المقاييس النصرانية على الدين الإسلامي .. فاطلقوا على الإسلام اسم المذهب المحمدي Mohammedanism .. ولعلمهم يهدفون من ذلك إلى إعطاء الانطباع بأن الإسلام دين بشري من صنع محمد ﷺ وليس من عند الله تعالى .

■ يخلط المستشرقون بين الإسلام كدين وتعاليم ثابتة في القرآن والسنة وبين الوضع المتردي للعالم الإسلامي اليوم .

■ يهتم المستشرقون بالفرق المنشقة عن الإسلام ويعمقون الخلاف بين السنة والشيعة .. ودائماً ، يقيسون ما يرونه في العالم الإسلامي على ما لديهم من قوالب مصبوبة جامدة ، وهذا ما أشار إليه المستشرق « رودنسون » في قوله :

(لم ير المستشرقون في الشرق إلا ما كانوا يريدون رؤيته) .

■ يفقد المرء الموضوعية في كتابات معظم المستشرقين عن الدين

تعد دائرة المعارف الإسلامية - على ما لنا عليها من مأخذ - ثمرة من ثمار التعاون العلمي الدولي بين المستشرقين ...

■ يعتبر كتاب « تاريخ الأدب العربي » لبروكلمان ، كتاب أساسي في الدراسات العربية .. ويشمل ، بالإضافة إلى الأدب العربي وفقه اللغة ، كل ما كتب باللغة العربية من المدونات الإسلامية ، فهو سجل للمصنفات الإسلامية ، المخطوط منها والمطبوع .. ويقوم الدكتور فؤاد سيزكين - بعد اكتشاف آلاف المخطوطات - بإكمال عمل بروكلمان ، وذلك في كتابه (التراث العربي) الذي منح عليه جائزة الملك فيصل منذ أربع سنوات .

■ يهتم المستشرقون بجمع المخطوطات العربية من كل مكان وبشتى الوسائل ، والعمل على حفظها وصيانتها من التلف والعناية بها عناية فائقة وفهرستها فهرسة نافعة ... وتقدر المخطوطات العربية الإسلامية في مكتبات أوروبا بعشرات الآلاف ، بل قد يصل عددها إلى مئات الآلاف ... ويرى الدكتور زقزوق [إن انتقال هذا العدد الهائل من المخطوطات إلى أوروبا ، بوسائل شرعية أو غير شرعية ، قد هيا لها أحدث وسائل الحفظ والعناية الفائقة والفهرسة الدقيقة] .. وأعرب عن شعوره بالأسى والحسرة لحال المخطوطات النادرة في كثير من بلداننا العربية والإسلامية ، وما آل إليه حال الكثير منها ، من التلف والتآكل وصعوبة أو استحالة الاستفادة منها .

■ للمستشرقين باع طويل في مجال المعاجم .. فقد تعاون عدد من المستشرقين المعروفين على إخراج المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف في سبعة مجلدات نشرت في الفترة من سنة ١٩٢٦م إلى سنة ١٩٦١م .. كما قضي أوجست فيشر ، بمعاونة آخرين ، أربعين عاماً في جمع وتنسيق مواد (معجم اللغة العربية القديمة) .

■ قام المستشرقون بنشر الكثير من أمهات كتب التراث .. وحققوا بعضاً آخر كما ترجموا العديد من الكتب العربية والإسلامية إلى اللغات الأوروبية كافة .

نزاهة العلم ، وحياد التاريخ ...

وحين يعرض المحاضر الجوانب السلبية عند المستشرقين ، التي تنصب مباشرة على دراستهم عن الإسلام يؤكد بعض الأولويات ،



● مالك بن نبي
التخلف الذي يعاني منه الشرق . لا يتحمل
الإسلام وزره . فهذا التخلف يعد عقوبة مستحقة
من الإسلام على المسلمين لتخليهم عنه ..
● لا تتسكهم به كما يزعمون ●



● الدكتور فؤاد سيركين .. يقوم بإكمال عمل
بروكلمان . في كتابه . التراث العربي . ●



مكسيم رودنسون
لم ير المستشرقون في الشرق إلا ما كانوا يريدون
رؤيته .. ●

طريق المواجهة ...

واختتم الدكتور زقزوق محاضرتَه بالتنبية إلى بعض الأمور التي ينبغي على المسلمين القيام بها لمواجهة الاستشراق ، فقال :
[إن علينا أن ننظر إلى حركة الاستشراق بكل جدية ، وناخذ في حسابنا أن لها آثاراً عظيمة على قطاعات عريضة من المثقفين في العالم الإسلامي وفي العالم الغربي على السواء . ولهذا لا بد من التوفر على دراسة الاستشراق دراسة عميقة .

وعلياً أن نقوم بإصدار دائرة معارف إسلامية باللغة العربية واللغات الأوروبية الرئيسية ... تنقل وجهة النظر الإسلامية في شتى فروع الدراسات الإسلامية والعربية إلى المسلمين وغير المسلمين ... فكل فراغ فكري لدينا لا نشغله بأفكار من عندنا يكون عرضة للاستجابة لأفكار منافية وربما معادية لأفكارنا ...

ودعا المحاضر إلى توحيد الجهود لإقامة مؤسسة إسلامية علمية وعالمية ، تستقطب الكفاءات العلمية الإسلامية في شتى أنحاء العالم وتقف على قدم المساواة مع الحركة الاستشراقية . وتعمل على استعادة أصالتنا الفكرية واستقلالنا في ميدان الأفكار ..

كما دعا إلى أن تكون للمسلمين مؤسسة تبشيرية عالمية ، أي جهاز للدعوة الإسلامية في الخارج ، يدعو للإسلام ويرعى المسلمين الجدد ويحمي المسلمين بالوراثة ...

وان يتم إعداد ترجمة مقبولة لمعاني القرآن الكريم باللغات الحية] . لتكون بديلاً عن عشرات الترجمات التي أعدها المستشرقون .. و [اختيار مجموعة كافية ومناسبة من الأحاديث النبوية وترجمتها] .

وفي إطار العمل لتصحيح التصورات الأوروبية عن الإسلام ، نبه إلى ضرورة [محاولة افتتاح مجالات تدريس العلوم العربية والإسلامية في الخارج عن طريق الاتفاقات الثقافية التي تعقد بين بلدان العالم الإسلامي ودول أوروبا وأمريكا ، وذلك بإرسال أساتذة أكفاء إلى معازل الاستشراق للتدريس فيها] ، والعمل على تنقية التراث الإسلامي حتى يكون غذاءً فكرياً صالحاً . [فترائنا فيه العث والسمن ، ومع أن الإسلام لا يتحمل وزر الخرافات والأوهام والاسرائيليات التي تشتمل عليها بعض كتب التراث لدينا ، فإن المستشرقين يستخدمون هذا التراث بكل ما فيه] ..

الإسلامي ، بينما يكتبون بكل موضوعية عند تناولهم للبيانات الوضعية كالهندوسية مثلاً ، ويعود تفسير ذلك - كما يرى الدكتور زقزوق - إلى أن الإسلام كان يمثل بالنسبة لأوروبا صدمة مستمرة ، فقد كان الخوف من الإسلام هو القاعدة .

■ يعطي الاستشراق لنفسه - في دراسته للإسلام - حق الاتهام والحكم وحق الرفض للأسس الإسلامية التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي .

■ تحالف فريق من المستشرقين مع الاستعمار واضعين أنفسهم ومعلوماتهم ودراساتهم عن الإسلام والمسلمين في خدمة الاستعمار لمكافحة الإسلام والمسلمين ..

■ دعا المستشرقون إلى إصلاح الإسلام ، بزعم أنه لم يعد مسائراً لروح العصر ، وهو ما عبر عنه أحدهم بقوله : (إن على الإسلام إما أن يتعمد تغييراً جذرياً فيه أو أن يتخلى عن مسابرة الحياة) .. وتمثل هذه الدعوة إلى الإصلاح محاولة من محاولات تغيير وجهة نظر المسلم عن الإسلام وجعل الإسلام أقرب إلى النصرانية بقدر الإمكان .

المعركة الفكرية ووسائلها ...

ومن خلال عرضه لإيجابيات وسلبيات الاستشراق ، خلص الدكتور زقزوق إلى أن المعركة الدائرة الآن بين الإسلام والأفكار المناوئة ، معركة فكرية ، لها ادواتها التي يجب التسلح بها .. وأكد على أن استيعاب الإنتاج الاستشراقي حول الإسلام ودراسته دراسة عميقة يمثل الخطوة الأولى لنقده نقداً صحيحاً وإثبات ما يتضمنه من تهافت وزيف .

ويعتقد : [أن الجانب الهجومي الاستشراقي في إنتاج المستشرقين قد يكون خيراً لنا - كمسلمين - من جانب المدح ... فقد يكون هذا الاستشراق حافزاً لنا لنخرج من حالة الركود الفكري التي وصلنا إليها لننتقل من جديد ... نبني أفكاراً .. ونعيد ترتيب صرح ثقافتنا وبذلك نقبل التحدي ونستجيب له فننهض من كبوتنا ...] .

كما يؤكد على ضرورة [أن نعترف بأن الاستشراق يستمد قوته من ضعفنا ، ووجوده نفسه مشروط بعجز العالم الإسلامي عن معرفة ذاته ، فالاستشراق في حد ذاته كان دليل وصاية فكرية] .